الموت داخل الكتب وخارجها ...

قصة بقلم نيروز مالك

رفع ابوسعيد الى عينيه كتابا ذا جلد اسود (*) تتوسطه شمس صفراء ملتهبة ـ رجال في الشمس ـ وقلب صفحاته بسرعة .. ثم اغلقه ، ووضعه جانبا ، والتفت الى مكتبة ابنه سعيد الخشبية ، ومر بنظره على الكتب المرصوفة على رفوفها .. ثم عاد ، ونظر خارجا في السماء الزرقاء الزاهية اللون عبر الباب المفتوح على مصراعيه أمامه . وقال في ذاته :

« كان سعيد لا يصرف نقوده .. انما يجمعها قرشا فوق قرش ، حتى اذا بلغت ثمن كتاب سارع الى مكتبة المخيم فاقتنى واحدا منها .. ثم عاد مسرعا الى البيت ليقول لي : « ابي عندما اشتري احد هذه الكتب لا اصدق متى اصل الى البيت »

ـ ولماذا يا بني ؟

ـ لكي اقرأه .

وماذا تجد فيه يا بني ؟

ـ حتى الان .. لا شيء .

صمت هنيهة .. ثم قال :

ـ كانت ام سعيد تقول له : « لا ادري يا بني لماذا تدفن رأسك بين هذه الكتب ؟ ولا ادري أي شيطان رجيم موجود فيها .. حتى يأخذك منا اياما ، وليالي طويلة . فكان يجيبها : « اماه .. الشياطين لا توجد داخل الكتب .. بل خارجها ! »

قطع ابو سعيد حواره ، ومد يده الى جيبه مخرجا سيجارة .. فأشعلها ، واخذ يسحب منها انفاسا قصيرة متقطعة .. ثم يطلق سراحها من فمه ، وانفه .. فتتشابك خيوط الدخان ، وتصعد على شكل حلقات الى السقف . تناول كتابه ، ورفعه الى عينيه .. وحدق في الشمس الملتهبة بوحشية ، وبالحروف الصغيرة المتمردة ـ رجال في الشمس ـ ثم عاد ، واخفضه من جديد وقال :

ـ جاءني سعيد منذ اكثر من سنتين يحمل هذا الكتاب ، وقضى الليل بطوله دافنا رأسه بين صفحاته .. ولم ينم حتى قرأ ما بين دفتيه ، وقام صباحا ليعلن لي : « انه كتاب رائع يا ابت » .

وكادت ام سعيد ان تطير من الفرحة .. عندما مر يوم ، ولم يلمس سعيد كتبه . ومر شهر .. وسنة .. وسعيد بعيد عنها .. كان يغيب عنا اياما طويلة .. ثم يأتينا صامتا لا يتكلم .. فيمزقنا القهر ـ أنا وام سعيد ـ

ونتساءل : « ماذا حل به ؟ ماذا ؟! »

وأتانا ذات يوم بعد صمته الطويل مرتديا بزة مبرقعة ، ومنتعلا خفين كتانيين .. لم ندهش عندما وقف امامنا مطرق الرأس .. لاننا كنا قد عرفنا في المدة الاخيرة لماذا يغيب ؟ ولماذا يظل صامتا لا يتكلم ؟ قلنا له يومها : « بارك الله فيك يا بني » .

***

وبعده لم تفارق البسمة ثغره ، ولم يعرف الصمت .. فكان يأكل بسرعة مبتلعا بضع لقيمات ، ويعود ليختفي عن اعيننا من جديد .

وفي احد الايام .. وهو يأكل بسرعة كعادته . قلت له :

ـ سعيد ؟

ـ نعم يا ابت .

ـ لقد مر وقت طويل وكتبك على الرفوف لا تمسها .. لقد علاها الغبار .

فتوقف عن الاكل لحظتها ، ونظر الي . وقال : « دعنا يا ابت منها .. ان طريقها عقيم ! »

كانت السيجارة قد احترقت تماما بعد ان نسيها ابو سعيد في يده فلدغته نارها عند اصبعيه .. فرماها .. وداسها بقدمه .. ثم شبك يديه على صدره . وتابع حواره :

« وفي الشهر الماضي ودعنا جميعا .. وقبل يدينا .. ثم داعب اخاه باسل . وقال له : « انا ذاهب .. وان لم اعد .. سأكون في انتظارك . »

أكنت تعرف يا ولدي انك ستسقط عليها ، وترضعها دمك راضيا مطمئنا ؟

***

وانسابت دمعتان حارتان على خدي ابي سعيد . فرفع يده ، ومسحهما .. ثم رفع الكتاب . وقال :

« ما قرأتك الا اكراما لذكرى ولدي .. ولو كنت في الخمسين لسلكت طريقه ! »

صمت ابو سعيد هنيهة . ونظر في الكتاب مرة اخرى . وتساءل . وقال :

اما زلت تسأل يا ابا خزيران رفاق طريقك .. عندما القيت بهم على مجمع قمامة المدينة .. وهم اموات بعد ان تركوا المخيمات ، وحاولوا الهرب الى الكويت داخل خزان سيارتك الفارغ من الماء بحثا عن العمل، والمال .. فشوتهم ، واماتتهم شمس الصحراء الحارقة في الطريق .. اما زلت تسألهم :

« لماذا لم يدقوا جدران الخزان ؟ لماذا لم يقرعوا جدران الخزان؟»

***

مد ابو سعيد يده الى جيبه .. واخرج سيجارة ثانية ، ووضعها في فمه .. وراح يدخنها بصمت ، وهدوء .. وهو ينظر خارجا عبر الباب .. ورأسه فارغ من الافكار .. وعيناه هادئتان .. ووجهه منبسط القسمات .. فرفع سيجارته بين اصابعه . وقال مبتسما :

« عندما رأيت شبلي « باسل » واقفا امامي ببزته الخضراء المموهة .. لم اعرفه ! لقد تركني صباحا في الثالثة عشرة من عمره .. وعاد ظهرا في العشرين ! ربما هكذا خيل لي .. لقد القى يومها بنفسه في احضاني مجهشا في البكاء فرحا . وقال بشفاه مرتعشة :

« ابي .. ان اخي سعيد في انتظاري .. انه في انتظاري ! » لم اتمالك نفسي لحظتها عن البكاء .. لقد هاجت ذكراه في اعماقي .. كان ولدا رائعا ، وشابا مطيعا .. كان غاليا على نفسي .. ولكن الارض التي سقط عليها اغلى منه ، ومن باسل ، ومنا جميعا . »

(*) مهداة الى غسان كنفاني .

صمت هنيهة .. ثم تابع حواره ثانية . وقال :

« قام باسل مبتسما . وقال لي : « ابت ، انني في عجل مـــن امري . » فاكل بسرعة مثل اخيه تماما ، وانطلق ثانية الـــى معسكر التدريب .

رفع ابو سعيد كتابه الى عينيه ، واخذ يقلب صفحاته .. ثـــم توقف عند آخر صفحة منه ، وحدق في سؤال ابي خزيران :

« لماذا لم تدقوا جدران الخزان ؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان؟ لمـاذا ؟ لمـاذا ؟ لمـاذا ؟ »

***

سمع ابو سعيد اصواتا ، وضحكات في الخارج . فقال لنفسه : « لقد عاد شبلي الصغير » .

وقام من كرسيه سائرا نحو الباب .. كان قصير القامة نحيـــل العود يناهز السبعين من عمره . وقف في الباب ـ فسقط ظله طويـلا خلفه .. ورفع يده مظللا بها عينيه ، وحدق في الشمس الساطعة .

كان الاشبال يخرجون من خلف التـــل ببزاتهم الخضر المغبرة ، ويتورعون داخل المخيم مختفين في بيوته .. قلق ابو سعيد عندما ظهر آخر الاشبال دون باسل . فقال في نفسه : « اين باسل يا ترى ؟ » ثـم فتح فمه ، وسأل الشبل :

ـ ابراهيم .. اين باسل يا بني ؟

رفع الشبل اليه عينين ضاحكتين .. بعـد ان وصل قريبا منه . وقـال :

ـ لقد ذهب مع اربعة اشبال آخرين في السيارة لجلب الماء الـى المعسكر .. اطمئن لن تطول غيبته ـ السلام عليكـم .

ثم تابع طريقه الى البيت .

كان بيت ابي سعيد يقع على الكتف الايسر من التل في الشمال .. حيث تمتد بيوت المخيم خلف التل الآخر في الجنوب .. نظر ابـو سعيد في الجزء الظاهر من الطريق الترابي وراء التلين ، عندما تناهى الى مسمعه صوت محرك سيارة منبعثا من خلف التل .. وما هـي الا لحظات حتى بانت مقدمتها .. كانت تسير ببطء ، وخمسة من الاشبال بينهم باسل متسلقون خزان السيارة .. فانقشعت سحابة القلق مـن على وجهه . وقال .. والفرحة ترقص في اعماقه : « هذا هو باسل .. لقد اصبح شابا قويا .. انظر اليه يا ابا سعيد .. انظر جيدا . »

فصعدت الفرحة الى رأسه طاغية جبارة .. وكادت ان تطيره مـن مكانه الى شبله .

اخذت السيارة تبطىء في سيرها .. فنظـــر الاشبال المتسلقون خزانها الى بعضهم باستغراب .. وصاحوا متذمرين ، محتجين : « هيه .. هيـه .. هيه . »

ولكن السيارة ابطأت في سيرها اكثر .. فأكثر حتـــى كادت ان تقف .. فارتفعت اصوات الاشبال عالية محتجة .. ثم لوحوا بقبضاتهم فوق رؤوسهم ، وهووا بها بعنف ، وشدة على الخزان .

تفجرت النشوة في اعماق ابي سعيد عارمة .. حتى انه لم يتمالك نفسه من طرق باب منزله الذي يقف فيه بقبضته . ويصرخ :

ـ اطرقوا الخزان بقوة يـــا اشبالـي ! اطرقوه .. اطرقوه .. اطرقوه !

وانخطفت السيارة بسرعـــة ، واختفت خلف التـــل ، وقبضات الاشبال مرفوعة الى السماء .

رفع ابو سعيد رأسه الى الشمس ، وفتح عينيه على محجريهما .. وحدق طويلا في عيونها قبل ان يعود ، ويدخل البيت .

حلب — نيروز مالك

صدر حديثـا

العمل الفدائي

ع الباب

انه ارشاد تطبيقي ميسر لمزاولة حرب المقاومة الشعبية والعمل الفـدائي على أرض يحتلها العدو ، ويرفض أهلوها الاستسلام . فيه نظرة تاريخية وتقييم ممتـع للعمـل الفدائي: أصوله، وطرائقه،والاساليب الاجدى فيالدعوة اليه وممارسته والظفر بعد أدائه . وهذا ما نحن في الوقت الحاضر في أمس الحاجـــة اليه . فالمؤلف رجل خبر حرب المقاومة الثورية والانتفاض على مختلف أعداء الشعب في أميركا اللاتينية والحرب الاهلية الاسبانية ، وهو يضع جميع خبراته في متنـــاول اليد لكل من يود الانتفاع بتجـــارب السابقين . كما ان الترجمة سهلة متبسطة لا يعتريها التباس .

انه كتاب كل مواطن ، الفدائي للمناقشة والتطبيق ، والمواطن العادي للتأهب كي يكون فدائيا يوما ما . لهذا نجده يشرح أفضل السبل لنصب الكمائن ولغم العـــربات المجنزرة ونسف مستودعات الذخـــيرة والتخلص من أفراد دوريات العدو . وفيه كيف يعيش الفدائي ورجل المقاومة ، وماذا يلبس في كل فصل ، وكيف يسلك مع الغير .

انه ثروة جاهزة للاخذ والتطبيق .

الناشر : دار الآداب بالاشتراك مع دار العلم للملايين

الثمن ٢٠٠ ق.ل.